تمهيـــد

نبذة عن تطور القاهرة العمرانى فى العصرين المملوكى والعثمانى:

بلغت القاهرة القمة فى تطورها العمرانى فى العصر المملوكى (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، وقد اتسع مدلول لفظ القاهرة بين المؤرخين والرحالة وكتاب الخطط فى العصر المملوكى ليشمل المدينة المسورة التى بناها الفاطميون، وظواهرها أى الخطط والحارات التى بنيت خارج الأسوار، وكذلك شمل العواصم القديم الفسطاط، والعسكر، والقطائع، بالإضافة إلى القلعة، إلى جانب الضواحى الشمالية، وذلك لاتصال التعمير فى كل هذه الأنحاء حتى غدت القاهرة كبرى مدن العالم آنذاك.

ومنذ أوائل الدولة المملوكية زاد عدد سكان القاهرة نتيجة للهجرات التى جاءتها من شرق العالم الإسلامى فرارًا من المغول، فوجب ذلك زيادة مساحة القاهرة، ويتضح ذلك جليًا فى سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) حيث «بنى فى أيامه مالم يبن فى أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات، من قريب مسجد التبن إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة، واتصلت العمائر إلى باب المقسم إلى اللوق إلى البورجى، ومن الشارع إلى الكبش وحدرة ابن قميحة إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها إلى السور القراقوشى[1]».

وكان الملك الظاهر بيبرس قد أمر فى سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م بعمارة الجانب الغربى للخليج بالدور الكثيرة فى منطقة باب اللوق لإسكان قسم من جيش هولاكو قائد المغول فر إلى مصر فى تلك السنة[2].

---

(١) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، (طبعة دار الكتب، جـ٧) ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

مسجد التبن يقع الآن داخل سراى القبة، وأرض الطبالة هى الفجالة حاليًا، وباب المقسم موقعه الآن فى ميدان رمسيس. والبورجى موقعه ميدان التحرير الآن، والشارع المذكور المقصود به شارع المعز لدين الله، وحدرة ابن قميحة تقع بزينهم حاليًا، وقد تناولت تلك الأماكن بالتفصيل تباعا.

(٢) المقريزى (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ جـ٢، ١١٧، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عاشور، طبعة دار الكتب (١٩٣٤ ـ ١٩٧٤م)، جـ١، ص ٨١٢.

وقد أهتم الظاهر أيضًا بمنطقة جنوب غرب القاهرة بنما عمرً قناطر السباع على الخليج ليسهل العبور بين ضفتى الخليج وييسر الطريق بين القاهرة ومصر القديمة، كما عَمَّر الجسر الأعظم الفاصل بين بركتى الفيل وقارون جنوبى القاهرة حتى ييسر الطريق إلى القلعة [١].

وقد أهتم الظاهر بيبرس بالقلعة اهتمامًا كبيرًا فعمر بها عمارات عظيمة جعلتها أشبه بالمدينة، واهتم بالأسواق حولها وخصوصًا سوق الخيل بالرميلة وأنشأ به حمامًا لولده الملك السعيد [٢].

وقد عمل الظاهر على اتصال العمارة من باب زويل إلى القلعة، فأنشأ فى تلك المسافة بيوتًا للأمراء، يسكنوها بحاشيتهم واتباعهم لأنه «كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية [٣]».

وعمل الظاهر أيضًا على تعمير القاهرة خارج سورها الشمالى، فأسس فى سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م جامعة الكبير شمال الحسينية، وأنشأ زاوية الشيخ خضر على الخليج بجواره، وبنى حمامًا وطاحونًا وفرنًا [٤]، وبدأ حى الحسينية يتطور منذ أيامه حتى بلغ أوج ازدهاره فى أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ـ ٧٤٠هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٤١م).

أما عن القاهرة الفاطمية فكانت مكتملة العمارة فى ذلك الوقت وإن ما كان يحدث بها إما مجرد ترميم أو تعمير لخرائب أو هدم وإعادة بناء، وقد عمر بها الظاهر مدرسة عظيمة ذات تخطيط جديد اتخذ نبراسًا لما بنى بعدها من مدارس، وكان لها دور علمى كبير فى العصر المملوكى [٥]، بالإضافة لذلك فقد جدد الظاهر بعض الجوامع السابقة مثل جامع الفكهانى الذى بناه الخليفة الفاطمى الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤م)، وجدد الجامع الأزهر، وأعاد إليه خطبة الجمعة بعد أن توقفت مائة عام، وقد اهتم بيبرس بجزيرة الروضة ورمم المقياس بها [٦].

وحظى حى الحسينية بعناية كبرى أثناء سلطنة الملك العادل كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م)، فقد أقيم به الكثير من الدور والمنشآت الدينية والاجتماعية، والأسواق العظيمة حينما أنزل الملك العادل به مهاجرين من المغول المعروفين بالاويراتية فى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م [٧].

---

(١) انظر بالتفصيل فيما يلى، ص ٢٧٨.
(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٩١.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٩، ٤٣٠، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ١٩٢.
(٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٧٨ـ٣٧٩.
(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ١٩٢.
(٧) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٢ ـ ٢٣، السلوك، جـ١، ص ٨١٢.

وقد بلغت القاهرة أقصى اتساع لها فى فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة، فمعاصره المؤرخ «ابن فضل الله العمرى» يذكر أن حاضرة (عاصمة) مصر فى وقته كانت تشمل ثلاث مدن عظام صارت كلها مدينة واحدة هى الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل [١].

ويعتبر عصر الناصر محمد هو العصر الذهبى لتعمير القاهرة بل لمصر كلها، وظلت حدود مدينة القاهرة دون تغيير كبير من أيامه حتى نهاية العصر العثمانى، وقد امتد العمران بالقاهرة شمالاً عبر الصحراء وفى الشمال الغربى وفى غربى الخليج والأرض التى اتصلت به من طرح النيل، ومن جنوب القاهرة حتى اتصلت بالقلعة ومصر القديمة والسيدة نفيسة، وقد قال «المقريزى» عن امتداد القاهرة أيام الناصر محمد « واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياس والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزاوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات، متصلاً جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم» [٢].

وقد بلغت جملة الاحكار أيام الناصر محمد أكثر من ستين حكرا وبلغ عدد المساجد الجامعة التى بها خطبة الجمعة أكثر من ثلاثين جامعا [٣]، وعمرت المناطق شمال وشمال غرب القاهرة عمارة عظيمة وخصوصا حى الحسينية الذى صار من أكثر الاخطاط ازدحاما نظرا لكثرة المهاجرين إليه من المشرق الإسلامى، ولهذا أُقيم به أيام الناصر خمسة جوامع بخطبة [٤]، وأيضا شيد الناصر محمد عدة قناطر على الخليج لربط الحسينية بكوم الريش (الشرابية حاليا)، وأرض الطبالة فى البر الغربى للخليج كان لها أثر عمرانى كبير، وهذه القناطر هى القنطرة الجديدة تليها قناطر الأوز ثم قنطرة بنى وائل [٥].

أما عن التعمير على الجانب الغربى للخليج فيما بينه وبين النيل فكان على أبدع ما يكون، فحكرت البساتين والأرض الزراعية على طول الخليج وعمرت عمارة حسنة امتدت من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب) إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس (الأزبكية)، وفى سنة

---

(١) ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) مسالك الأبصار فى ممالك الامصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٠، ٧٩.

(٢) الخطط، جـ١، ص ٣٦٥.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٩٨.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦٥، جـ٢، ص ٢٣، ٢٤٥، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٥.
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦.

(٥) المقريزى، الخطط جـ٢، ص ١٤٧ ـ ١٤٨. وانظر بالتفصيل الفصل الرابع من هذه الرسالة.

٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م حفر الناصر محمد البركة الناصرية على الجانب الغربى للخليج ، فحكر الناس الأرض حولها وبنوا عليها الدور العظيمة [١].

وفى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م حفر الناصر محمد الخليج الناصرى وكان فمه بالقرب من القصر العينى ويتجه شمال شرق حتى يلتقى مع الخليج الكبير عند جامع الظاهر بيبرس، وقد نتج عن ذلك حكر العديد من الأراضى الزراعية الواقعة بين الخليجين (المصرى والناصرى)، وكذلك التى بين الخليج الناصرى والنيل ومنحت للأمراء الذين عمروا بها الدور والأسواق والجوامع والحمامات والشون[٢].

وأنشأ الناصر القناطر على الخليجين حتى جعل البر الغربى للخليج سهل الأتصال بالقهرة الفاطمية التى ظلت المركز التجارى الرئيسى (شكل ١).

وفى أيام الناصر محمد أيضا طرح النيل أرضا جديدة فعمرت الخطط الحسنة والموانئ الكبيرة عليه وامتدت من أثر النبى جنوبا مرورا بمصر القديمة فمنشأة المهرانى فبولاق حتى منية السيرج شمالا، وكانت تلك الأراضى قبل ذلك تلالاً ورمالاً وحلفاء، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء قام به كثير من الأمراء تقربا منهم للسلطان[٣]. فالناس على دين ملوكهم، فعمروا أسوة بالناصر محمد راعى العمارة والتعمير، وعمل الناصر محمد على إيجاد تعمير ترفيهى غربى الخليج وعلى النيل يتمثل فى الميادين مثل إنشائه الميدان السلطانى على النيل وميدان المهارى بجوار البركة الناصرية وغيرها [٤].

وامتدت يد التعمير أيام الناصر محمد أيضا إلى المنطقة خارج السور الجنوبى للقاهرة الفاطمية فعمر خط تحت الربع وحول بركة الفيل، وعمرت المنطقة ما بين باب زويلة إلى القلعة بدور كبار الأمراء، وكذلك ما بين باب زويلة إلى باب الوزير واتصلت تلك العمائر والخطط حتى القلعة [٥].

ولاقت القلعة عناية كبيرة من الناصر محمد فعمر بها أهم منشآتها فى العصر المملوكى، مثل الجامع والقصر الأبلق والأيوان والقصور الجوانية والسبع قاعات والطبلخاناه تحت القلعة

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٥، وانظر بالتفصيل الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦٥، جـ٢، ص ١٣١، وعن الاحكار الواقعة على الخليج بالتفصيل، انظر: الخطط، جـ٢، ص ١١٤ ـ ١٢١، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦٥. السلوك، جـ٢، ص ٥٣٩، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٨٢ ـ ١٨٥.

(٤) انظر بالتفصيل الفصل الخامس.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦٥.

وأحواش الغنم والبقر وغير ذلك [١]، وعمر الناصر أيضا ميدان الرميلة والميدان السلطانى تحت القلعة، ومد إليهما الماء عن طريق مجرى العيون [٢]، وانتعشت الأسواق التى ارتبطت بالنظام العسكرى المملوكى حول ميدان الرميلة مثل سوق السلاح وسوق الخيل وسوق الخيم، وقد أقيم حول الميدان عدد من القصور للأمراء، وعمر الطريق من الميدان إلى قناطر السباع بالقصور والمنشآت الدينية، فأكتظت خطط الصليبية وابن طولون والجسر الأعظم بالعمائر الفخمة، وكذلك أقام الناصر عدة مناظر وقصور على هضبة الكبش [٣].

وعمرت المنطقة فيما بين قبة الأمام الشافعى إلى باب القرافة (بميدان السيدة عائشة حاليا) بالعمائر الجنائزية والدينية كالقباب والترب والخانقاوات والمساجد، وانتشرت العمائر على امتداد القرافة الكبرى حتى بركة الحبش جنوبا [٤].

أما عن الجانب الشرقى للقاهرة فيما بين قرافة السيوطى جنوبا وبين خانقاة فرج بن برقوق شمالا فكان التعمير بها نواة للمجمعات الدينية والجنائزية التى حفلت بها المنطقة عقب ذلك، وقد أتى اهتمام الناصر محمد لتلك المنطقة لأنه كانت مسار الطريق السلطانى المستخدم للسفر للحجاز والشام.

ونظرا لاتساع القاهرة الكبير أيام الناصر محمد فقد أعقبه بلا شك زيادة سكانية كبيرة، وإن كنا لم نعلم احصاءا سليمًا للسكان فى العصر المملوكى، فقد قدر البروفيسير اندريه ريمون عدد سكان القاهرة زمن الناصر محمد بخمسمائة أو ستمائة ألف نسمة[٥]، ولكن نظرا لانتشار الأوبئة والطواعين فى ذلك العصر فقد انخفض عدد السكان بنسبة كبيرة ولاسيما سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م فى ذلك الوباء الأسود الذى ساد العالم آنذاك، وأثر بشكل كبير على دول حوض البحر الأبيض المتوسط وقد عرف هذا الوباء بالفناء الكبير وانخفض عدد سكان القاهرة بنسبة كبيرة فى تلك السنة [٦]. وكذلك انخفض عدد سكان القاهرة ومصر كلها بنسبة كبيرة فى أعقاب الوباء الذى حدث أيام الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م واستمر مدة

(١) كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ١١٥ ـ ١٥١.

(٢) انظر بالتفصيل ميدان الرميلة فى الفصل الخامس.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ٥٤٠، وعن المناظر بالتفصيل، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٥٤٠، وانظر بالتفصيل: محمد حمزة، قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، ماجستير «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٦).

(٥) Raymond, A., " La Population Du Cairo, De Maqrizi á La Description de L'Egypte " B E O (1975), P. 251.

(٦) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٩، ٣٦١، ٣٦٥، السلوك، جـ٢، ص ٧٥٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٦، ٧٧٨، ٧٨٩، ٧٨٠، ٧٨٧، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٠، ص ١٥٩ ـ ٢٢١. ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٨٢، جـ١، ق١، ص ٥٢٧ ـ ٥٣٧.

سنتين [١].

أما أخطر الأزمات التى تعرضت لها القاهرة فكانت حسبما ذكر المقريزى هى المحن والحوادث والأوبئة التى داهمتها سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م وما أعقبها من سنين، ففى تلك السنة حدثت أزمات اقتصادية كبيرة نتيجة لعدم وفاء النيل وانخفاضه الذى أعقبه غلاء كبير فى الأسعار، وصاحبه أوبئة عديدة لانتشار الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية واغتصاب الأوقاف بالقاهرة بالإضافة إلى ذلك كانت الأخطار محدقة بالشام من قبل الدولة التيمورية، وكانت هذه السنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م بداية لخراب كبير للقاهرة فخربت معظم الخطط والاحكار التى حدثت أيام الناصر محمد، وخربت الأحياء شمال القاهرة وعلى الأخص حى الحسينيه وهجر السكان منه وكذلك كثير من الأراضى غربى الخليج تجاه اللوق وكانت القاهرة قد فقدت نحو ثلثى سكانها [٢].

ولكن القاهرة تغلبت على المحن التى ألمت بها وعاد إليها بعض رونقها فى سلطنة الملك المؤيد شيخ (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٣ ـ ١٤٢١م) فأعيدت الحياة للخطط على شاطئ النيل وصارت بولاق بلدة عظيمة وميناءاً كبيراً اضمحل معه أمر ميناء الفسطاط [٣].

وعاد للقاهرة وجهها المشرق الذى كانت عليه أيام الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنة الأشرف قايتباى (٧٨٣ ـ ٩٠١هـ/ ١٤٦٧ ـ ١٤٩٦م) الذى عمر بالقاهرة الكبرى العديد من المنشآت الهامة [٤]، وكذلك كان لأمرائه دور فى تعمير ضواحى شمال القاهرة وغربها، فقد أنشأ الأمير يشبك من مهدى الدوادار انشاءات عظيمة أحيت المنطقة وصارت من أعظم متنزهات مصر، فقد أمر يشبك بازالة القبور والدور التى كانت منتشرة فى المنطقة الواقعة بين الحسينية والريدانية (العباسية) وأقام مكانها قبة ومدرسة وحوضا لشرب الدواب وغرس بها حدائق وبساتين للنزهة، وقد بقى من هذه المجموعة القبة المعروفة بقبة الفداوية الواقعة بشارع العباسية (أثر رقم ٥)، وهذه القبة دليل على عظمة همة الأمير يشبك، وفى ضواحى القاهرة الشمالية بنى يشبك مجموعة معمارية كبيرة جنوب المطرية بقى منها القبة (أثر رقم ٤)، وعرف الحى الذى بها حى القبة، وكانت تلك المنطقة متنزها جميلا فى العصر المملوكى [٥].

وفى أيام السلطان قايتباى أيضا امتد التعمير للضفة الغربية للخليج حيث أنشأ الأمير

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٩. ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٦٦.

(٢) كانت هذه الأزمات التى بدأت سنة ٨٠٦/ ١٤٠٣هـ هى الدافع للمقريزى لتأليف كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة. وانظر ما يلى ص ٤٨.

(٣) انظر بالتفصيل الفصل الأول من الرسالة.

(٤) عن منشآت قايتباى بالتفصيل انظر: حسنى نويصر، مجموعة سبل السلطان قايتباى بمدينة القاهرة، ماجستير، مخطوط، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٠م). منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة، دكتوراه مخطوط، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م).

(٥) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٨م)، الضوء اللامع لأهل القرن =

الأتابك أزبك من ططخ الأزبكية، فقد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى وأنشأ حولها القصور والقاعات والدور والمنشآت التجارية والاجتماعية مثل القياصر والحمامات، وأنشأ بها مسجدا كبيرا، واهتم ثراة القاهرة وأعيانها بالتعمير بالأزبكية فصارت من أعمر بقاع مصر [1].

القاهرة فى العصر العثمانى

لم يطرأ تغيير محسوس أو تبديل ملفت للنظر فى تخطيط أو مساحة القاهرة طوال القرون الثلاثة التى حكمها العثمانيون عما كانت عليه أيام المماليك، ولم تساير الزمن فى تقدمه بل ظلت على حالها ولا نغالى إذا قلنا أنها رجعت القهقرى وفقدت بريقها ورونقها وجمالها، ولم يعمل العثمانيون على تطويرها لتغشى الفساد الإدارى والسياسى أيامهم، إلى جانب عامل هام أثر فى حياة القاهرة وتطورها فى مصر كلها ألا وهو العامل الاقتصادى، إذ يرجع تردى الأوضاع الاقتصادية بمصر إلى ما قبل دخول العثمانيين مصر بقليل وظهر أثره جليا فى عهدهم، وذلك عندما أكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فى فترة حكم الغورى فتحول طريق التجارة عن مصر آنذاك، وكان حكام مصر يجبون أموالا طائلة من المكوس والضرائب والاحتار فى تجارة الشرق إلى أوربا، وتأثرت مالية الدولة كثيرا بفقدها ذلك المورد الهائل مما حدا بالغورى أن يعوض تلك الخسارة على حساب كاهل الشعب المصرى.

وأثناء الغزو العثمانى لمصر تعرض بعض أحياء القاهرة للأضرار الناتجة عن المعارك بها، بالإضافة إلى نهب الجيش وتخريبهم لأحياء وخطط كانت فى غاية العمارة مثل الناصرية والأزبكية إلا أن تلك الحالة لم تدم طويلا فسرعان ما تم اصلاح ذلك، وحل العثمانيون محل أمراء وجنود المماليك فى دورهم وأملاكهم بالقاهرة.

وقد زار مصر فى بداية العصر المملوكى الرحالة «الحسن بن الوزان المعروف « بليون الأفريقى» فوصف القاهرة وصفًا ليس به أى تغيير عما كانت عليه أيام الغورى، وجاء

= التاسع، نشر مكتبة القدسى، القاهرة، ١٣٥٣هـ ـ ١٣٥٥هـ، جـ١، ص ٢٧٤. ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٦٠.

Abouseif, D., " The Northe Eastern Extension of Cairo Under the Mamluk. An Isl, XVII (1981), PP. 171 - 188., id., " Four Domes of the Late Mamluk Period : An Isl XVII (1981) P. 193.

وعن أعمال يشبك بالتفصيل انظر : سامى عبد الحليم، الأمير يشبك من مهدى وأعماله المعمارية بالقاهرة، ماجستير مخطوط، (كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٩م).

(١) عن الأزبكية بالتفصيل انظر الفصل الثالث ص ٢٠٩.

وصفه للحياة الاجتماعية بها فى غاية الدقة [١].

وقد حافظت القاهرة على شكلها ومساحتها طوال العصر العثمانى، وأدخل العثمانيون بعض الطرز المعمارية الجديدة على العمائر مثل المدارس والمساجد والأسبلة والأضرحة إلا أن الطرز المحلية ظلت سائدة فى الأغلب.

وقد تم الاهتمام فى العصر العثمانى ببعض أحياء القاهرة مثل الأزبكية بركة الفيل [٢] والجانب الغربى للخليج، وقد أزدهرت بولاق بشكل واضح فى العصر العثمانى.

أما عن صورة القاهرة حين قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨، فبالنظر إلى الخريطة التى وضعوها لها سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م، نجد أن حدها الشمالى يمتد بين الحسينيه وباب الحديد، والحد الجنوبى بين القلعة إلى باب عرب يسار إلى باب القرافة بالسيدة عائشة إلى جامع السيدة نفسية فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب، والحد الغربى من باب السيدة زينب إلى الناصرية فباب الشيخ ريحان فباب اللوق إلى الأزبكية إلى باب الحديد، والحد الشرقى يمتد من القلعة فباب الغريب فباب الحسينية.

وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع، وكانت بولاق ومصر القديمة ضاحيتين مستقلتين فقد كان الطريق إليهما يمر بالمزارع والحدائق، وكان على شاطئ النيل الشرقى بعض مبان قديمة كقصر إبراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة وبجواره بيت محمد كاشف الأرناؤوطى وعلى شماله بيت مصطفى بك.

وقد اتفق أكثر الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثرة التعاريج، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا، ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة هى ميدان قرة ميدان تحت القلعة وميدان الرميلة بجواره وميدان بركة الفيل (بركة الفيل نفسها) وميدان الأزبكية (بركة الأزبكية نفسها) [٣].

وقد كانت القاهرة فى ذلك الوقت باستثناء ضاحيتى بولاق ومصر القديمة يبلغ محيطها ٢٤ ألف متر بينما تبلغ مساحتها ٧٩٣ر٠٤ هكتارا [١] وإذا أضيفت إليها مصر القديمة وبولاق

---

(١) ابن الوزان (الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الأفريقى، ت بعد نة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)، وصف أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية وحققه محمد حجى، ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، (المغرب، ١٩٨٣)، جـ٢، ص ٢٠٣ ـ ٢٢١.

(٢) انظر بالتفصيل الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(٣) عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وآثارها، ٩٦٩هـ/ ١٨٢٥م، من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ، (الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص ٢٤٩.

تصل مساحتها إلى ٨ر٨٨٣ هكتارا، وكانت القاهرة مضافة إلى مبانيها تفوق فى الحجم كل العواصم الأوربية فيما عدا لندن وباريس [٢]. وقد قدر عدد سكان القاهرة فى أيام الحملة الفرنسية بمائتى وستين ألف نسمة.

وقد تعرضت أحياء القاهرة للتخريب نتيجة ثورتى القاهرة ورد الفعل الفرنسى لهما إلا أنها رممت بعد ذلك، وأدخل الفرنسيون بعض التنظيمات الإدارية على القاهرة بتقسيمها إلى ثمانية أقسام وتوسيع بعض شوارعها وشق شوارع جديدة وادخال العادات الصحية للمدينة من نظافة وتجميل [٣].

وقاد محمد على باشا الكبير (١٢٢٠ ـ ١٢٦٥هـ/ ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨م) مصر نحو نهضة شاملة وخص القاهرة بنصيب كبير من التقدم، فشقت الطرق الجديدة بها وأدخلت طرز معمارية أوربية جديدة، ورممت مبانيها القديمة وعمرت خرائبها وأزيلت الكيمانات بها، وعمرت مكانها المتنزهات والحدائق، وبدأت بعض الأحياء فى الأزدهار مثل شبرا التى أمتلأت بالقصور وشقت طرق واسعة مشجرة تؤدى إليها وكذلك منطقة جاردن سيتى، وعمل محمد على باشا مجلسا للأشراف على تجميل القاهرة وتنظيمها.

ثم أخذت القاهرة شكلا جديدا فى عهد الخديو إسماعيل، إذ أنها أصبحت ذات شقين الشق الأول وهو الشرقى يمثل القاهرة القديمة، والشق الآخر غربى الوجهة والطراز لأن الخديوى أدخل الطرز الأوربية فى هذا القسم وعمل الخديو على تنظيم القاهرة وتجميلها فصارت القاهرة ندا لأعظم عواصم أوربا أن لم تكن قد تفوقت عليها بالفعل.

وظل وجه القاهرة منذ عهد إسماعيل إلى منتصف هذا القرن مشرقا بقسميها الشرقى والغربى، إلا أنها نمت واتسعت اتساعا كبيرا فى هذا النصف من هذا القرن وزاد عدد سكانها زيادة عظمى، ولكن يؤخذ عليها أنها فقدت هويتها وشخصيتها وجمالها فلم تحافظ على طرزها المعمارية الجميلة، وأنما أصبحت مبانيها كتلا أسمنتيه متنافرة وحفلت القاهرة الكبرى باحياء عشوائية كبيرة ذات مشاكل جمة أدركت الدولة خطورتها فأعلنت عن خطط لتطويرها، ندعو الله أن نرى آثارها.

---

(١) الهكتار وحدة مساحة فرنسية تساوى عشرة آلاف متر.

(٢) جومار، وصف مصر (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل)، ترجمة وتحقيق أيمن فؤاد سيد، (نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٩٨٨)، ص ٧٥.

(٣) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٩٠.